رغم ادعائها أنها سُنيّة.. الدولة العثمانية

تأثرت بخليط من الثقافات والعقائد التي أقحمتها في إسلامهم

ذكر المستشـــرق "كارل بروكلمان" أن الأتراك في القرن الســـادس للميـــلاد كانت لهم دولتان امتدَّتا من منغوليا وتخوم الصين حتى البحر الأســـود، فأما مؤســـس الدولة الشـــرقية فهو "يومين" المتوفَّى منتصف القرن الســـادس الميلادي، وأما أخوه الآخر فقد بســـط نفوذه على الأصقاع الغربية، فيما قضت أسرة "تانغ" الحاكمة للصين على الدولة الشرقية، وتفرَّقت جموعهم في الآفاق.

وكما هو معروف أنّ الأتراك قبائل بدويّة عاشوا حياة الترحال، وكانوا يتنقَّلون من مكان إلى آخر، وهـــم بذلك تأثروا بكثير من معتقدات الشـــعوب التي كانت حولهم، فانتشـــروا وعاشـــوا في مناطق واســـعة، فعلى ســـبيل المثال تأثـــرت القبائل التركيّـــة التي على حـــدود الدولة البيزنطيّـــة بالديانة المســـيحيّة، بينما القبائل التركيّة القريبة من حدود الصين تأثـــرت بالديانة البوذيّة والمانوية، فيقول "بروكلمان" عن ذلك: أما حياتهم الدينية فكان يهيمن عليها "الشامان" الكاهن الذي كان يدَّعي غيبوبةً مصطنعـــة، مدعيًا طرد الأرواح الشـــريرة المقيمة تحت الأرض، وأنه يســـتنزل البركة من رُوحَي الأرض والماء الخيرتين، وأرواح الأسلاف الطائفة في الجنة، ولم يكن أحد ليجرؤ على أن يتصل بهذا العالم الذي يدَّعيه من غير طريق الشامان بالذات العليا، السماء، وهي الآلهة بالكائنات الصالحة.

كمـــا تأثَّرت القبائل التركيّة بالمانوية، حيث كانت على الحدود الإيرانيّة، فكانت تربطهم علاقات بسبب التبادل والتعامل التجاري بين هذه القبائل مع جيرانهم، وقُتِيل القرن السابع الميلادي وصلت المانوية إلى الشرق الأقصى صوب تركستان الشرقية من خلال طرق القوافل من كشغر حتى كوتشا، وعلى ما يبدو لم يحدث أن تبنَّى الأتراك عقيدة دينية معينة ترعاها الدولة، وتعمل على نشرها أو تتبنَّى حمايتهـــا، إلا في عهد الإيغور عندما اعتنق بوكو قاغان المانويـــة ديانة للفرس، واتخذ من الدين ذريعة للتدخل في شؤون الصين الداخلية، وأجبر الإمبراطور الصيني على إقامة المعابد المانوية، واستقبال الرهبان المانويين في مختلف المدن الصينية بما فيها العاصمة، إلا أن هذه الأحداث لا تشـــكل اتجاهًا عامًّا في التاريخ التركي، فالعقيدة الشـــامانية موجَّهة للسياسة الداخلية من خلال إضفاء صبغة إلهية على الأباطرة، وأفراد أُسَـــرهم من أمراء ونبلاء وقادة عسكريين من أجل ضمان السلطة المُطلَقة لهم، ولم يبرِّروا الحرب والتوســـع بأي خلفية دينية، فكان هدفهم هو الحصول على الغذاء والكســـاء وسبل أفضل للعيش، وهذا في نظرهم أمر عادل ومشروع.

> **الطابع العام للأتراك تأثُّرهم بغيرهم ثقافيًّا ودينيًّا، وتضارُبهم في الأفكار والمعتقدات بما يخدُم مصالحهم العسكرية والسياسية**

وأما الطابع العام للأتراك، فهو الاســـتفادة من عقائد الأمم التي دخلت تحت حُكمهم، وإفساح المجال أمامهم لإدارة شـــؤونهم الداخلية في ظل دولتهـــم الكبرى، ولعل هذا الأمـــر إلى جانب تعدُّد القبائـــل التركية، وتعـــدُّد الأمم أدَّى إلـــى التلاقي الثقافي معها، وبالتالي فإن ما أســـماه المؤرخون بالدولـــة التركية الكبـــرى (220 ق.م – 940م) التي تعاقـــب العديد من القبائل التركية على حُكمها لم تكن دولة ذات طابع ديني، وقد تم التلاقح الثقافي بينهـــا والإمبراطوريـــة الصينيـــة والفارســـية، والإمبراطوريتين البيزنطيتين الشـــرقية والغربية، وأخيرًا مع الدولة الإســـلامية رغـــم وجود العلاقات ذات الطابع العدواني بينها.

وحين تشكَّلَت دولة الأتراك لاحقًا ودخلوا الإسلام لم ينعتقوا من أثر العقائد التي تلاقحوا معها، لذا تجد أثرًا شـــامانيًّا مانويًّا فارسيًّا وصينيًّا، وحاولوا صبغ بعض معتقداتهم المختلطة بالإسلام، وهذا ما نلحظه من تمسُّـــكهم إلى اليـــوم ببعض العادات القديمة ذات المنشـــأ العقائدي القديم، والوثني والديانات العديدة، لذلك على الرغم من أن الدولة العثمانية تعتبر نفســـها دولةً سُـــنية؛ إلا إنها متأثرة بمجموعة من العقائد، ومنها الفكر الفارسي الشعوبي وما خلفه عن طريق التصوف والباطنية.

المراجع:

1) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس وآخر، ط16 (بيروت: دار العلم للملايين، 2006).

2) فراس الســـواح، موســـوعة تاريخ الأديان، ترجمة: عبد الرزاق العلي وآخر، (بكين: التكوين، 2016).

3) هدى درويش، "المنهج الصوفي للطريقة البكتاشية وتأثيره على السلطة الحاكمـــة في تركيا"، بحـــث مقدَّم إلى مجلة كليـــة الآداب، جامعة الزقازيق، نوفمبر (2001).